خـــارج المـــدى

إشـعـــات ثـقـافـيـــة

فـــاضل الـــسلـطـــاني

تصل إلى القارىء العراقي والعربي بين فترة وأخرى أنباء عن منح هذا الأديب أو ذاك جائزة "عالمية". وتنشر الصحف المحلية ذلك ربما عن حسن نية كامل، مفترضة الصدق في مثل هذه الأنباء التي يرسلها المعنيون أنفسهم. ولو كان الأمر مقتصراً فقط على إشباع ذوات الأدباء المتضخمة، لما استحق التوقف عنده، لكننا نعتقد أن له أضراراً كبيرة قد تكون غير مرئية في الأمد القصير.

مثل هذه الأنباء تهدف، أولاً، إلى بث إشاعة ثقافية كاذبة إلى الوسط الثقافي المحلي، فارضة نفسها من فوق باسم" العالمية"، مفترضة أن الوسط المحلي، ضعيف الحصانة أمام كل "ماركة عالمية"، وهو شيء صحيح إلى حد بعيد. إنه يقف أمامها مبهوراً، فيغيب التساؤل والشك والنقد. وإذا كان المبدع "المحلي" يحتاج إلى سنوات طويلة من الكدح الإبداعي، إذا صح التعبير، حتى ينال اعتراف المرجعية الثقافية، التي كانت موجودة في زمن الخير، فإن زميله، الذي خدمته الظروف فوجد نفسه في المنفى، هو حر من كل ذلك. حر من المرجعية، ومن التقاليد الثقافية الصارمة التي تكرست عبر السنين، وميزت بين الغث والسمين. إنه حر من الماضي، الذي لايوجد شهود عليه في المنفى. وبالتالي لا بأس من إعادة إنتاجه كما يشتهي المرء ويتمناه. وستجري عملية تسويق هذا الماضي الكاذب، سواء أكان سياسياً أم ثقافياً، في المنفى، ليصبح حاضراً ومستقبلاً، وستتم إعادة تصديره إلى الداخل، والقفز، بهذه الطريقة، على المؤسسة وكسب اعترافها عبر الإشاعة الثقافية، والتعالي أيضاً على الكتاب المحليين المساكين، الذين لم يصلوا إلى العالمية، وبقوا قابعين في محليتهم! ولكي تحقق هذه الإشاعة أهدافها، فلابد من أن تدعم مادياً عبر وسيلتين: الترجمة والجوائز.

وكلنا يعرف أن هناك هوساً عربياً بالترجمة إلى اللغات الأخرى. وقد ارتبط في أذهاننا أن مجرد الترجمة إلى أية لغة، تدخل صاحبها إلى نادي العالمية مباشرة، متناسين أن لاشيء هناك اسمه العالمية، ولا شيء هناك اسمه أدب عالمي، بل أدب منقول من لغة أجنبية إلى أخرى. ولا شيء أكثر من ذلك، وقد يكون أدباً كبيراً أو لا يكون.

كتبت مرة ناقدة أوروبية تقول بعد قراءتها ترجمة لأحد الدواوين العربية إلى لغتها: ؟اذا كان الشعر العربي الحديث بهذا الشكل، فلا خير فيه؟. اننا نترجم لبعضنا بعضاً، بعدما عرفنا بعض اللغات بفضل المنافي السعيدة. وحين نفعل ذلك، تختفي كل المعايير الادبية والجمالية، لتحل محلها المعايير الإخوانية والاجتماعية، وتصل الشائعة الى هذا المثقف الاوروبي أو ذاك فيتسلمها كحقيقة جاهزة، دون ان يكون ملماً كفاية بخارطة الادب العربي الحقيقي، ومبدعيه الحقيقيين، كما ان المال موجود ايضا، من ناحية أخرى، وهناك محتاجون دائماً، مثلما يحصل بالضبط مع قسم من الطلبة العرب الذين يدفعون سخياً ليعودوا غانمين بشهادات الماجستير أو الدكتوراه الى مجتمعات لا تبهرها سوى الالقاب. ولا حاجة للمرء الى ان يقول انها، مرة أخرى، ظاهرة عربية بامتياز، ازدهرت في السنوات الأخيرة بعد الهجرة الاختيارية أو الاضطرارية لعدد كبير من المثقفين إلى الخارج.

فما ان تفتح ديوانا حتى تجد ان صاحبه قد ترجمه، حتى قبل ان يبدأ، الى كل لغات العالم الحية، وتتأسف على السياب ونازك الملائكة اللذين لم تترجم لهما سوى بعض قصائد. وتتذكر عشرات المبدعين العراقيين والعرب الحقيقيين، الذين لم يجدوا من يترجم لهم عملاً ما. وبالطبع، من حق كل كاتب ان يفعل ما يشاء، لكن الضرر الحقيقي سيصيب الأدب العربي كله، اذا لم تعالج هذه الظاهرة ولا نعرف كيف، لكننا نعرف أن هم المبدع الحقيقي هو عمله، وشغله الشاغل هو ان يجود في مهنته الشاقة، تجويداً يصل الى حد الهوس، وقد يأتي المترجمون بعد ذلك أو لا يأتون.

أما من ناحية الجوائز، فالأمر أنكى، وكأن هذه الجوائز "العالمية" قد انشئت أساساً لتمنح لبعض الكتاب، فما أن تفتح أية جريدة حتى تقرأ خبراً عن فوز أحدهم بـ"جائزة عالمية". هكذا بشكل مجرد لا يشير حتى إلى اسم هذه الجائزة. بالطبع هناك جوائز تمنح لهذا الكاتب أو ذاك من قبل جمعيات ثقافية، ولكنها جوائز محلية مخصصة لأبناء الجاليات، ولا علاقة لها بالعالمية من قريب أو بعيد سوى كونها تُمنح في بلد أجنبي، كما لا تستند إطلاقاً إلى حكم قيمي، بل تُمنح لاعتبارات تضامنية مع أبناء هذا الشعب أو ذاك. وبالمناسبة، فإننا لم نسمع أن أحداً مُنح "جائزة عالمية" في لندن لسبب بسيط هو إن المؤسسات الثقافية فيها لا تمنح جوائز لأبناء الجاليات، وإنما لعمل المبدع نفسه لاعتبارات إبداعية أولاً وأخيراً.

"الماء الطاهر" ودرب الجيشا المؤدي الى الورد

في الـطـــريق الى الـيـابـــان: المـضي بعـيـدا الى الأمـــام

فـاطـمـة المحـسـن

في محطة الذهاب من بيروت الى طوكيو، تراودك أحلام المسافر في زمن قادم،حيث يختصر طيران المستقبل رحلة يومين بثلاث ساعات. تنسى التعب الممض وأنت تحل بعاصمة الإمبراطورية السابقة "كيوتو" فتعرف سر بساطة" الهايكو" الشعر الذي قلب موازين الشعرية في العالم. قالت الصديقة كايكو ساكاي أن الأميركان رغم قسوتهم مع هيروشيما وكانتزاكي، أحجموا عن قصف كيوتو خوفا على آثارها العريقة. المدينة لم تكن مجرد متحف ومعابد ومحاريب وبيوت جيشا، بل هي سر اليابان الخفي، كبرياء البساطة والجمال والعذوبة. ستضل الطريق وأنت تتجول في طوكيو مدينة الثراء والعالم المتسارع. ناطحات السحاب وزحام الشوارع المترفة. ولكنك هنا في "كيوتو" تمسك المدينة براحة كفك وتضعها مع إناء الزهور على مائدة الصباح.

في الطريق الى معبد " الماء الطاهر" كان رذاذ المطر يعبر بين الأسلاك الرقيقة لأشعة الشمس. ترفع رأسك الى السماء وتبحث عن غيمة فلا تجدها. هل هي بداية القصيدة؟. ربما تقول لنفسك، وانت تستحضر في كل منحدر ودرب صغير تلك اللمسات الرقيقة لعالم مسحور: انحناءات الأشجار،سقوف المباني،مدرجات الحصى وانبثاق التكوينات الحجرية.حديقة الشرق السرية وسط الحوش وبين الفضاء المتعامد. تعرفها ولا تعرفها، تحتفظ بذكراها البعيدة وتجهل أسرار سواقيها.

كان المعبد يروي قصص المكان في تنويعاتها القديمة: الحكمة والخوف والسكينة. بوذا يحرسه حشد من جنرالات السماء الأقوياء، لا الساموراي النبلاء. بشاعة وجوههم وقسوة أجسادهم تعارض صورته،فتماثيله التي تتكرر لاتتطابق ملامحها، ولكنها كلها توحي بالطمأنينة.هو لايبدو عليه الخوف او القلق فمن وضع له حراسا بشعين؟. الناس لا هو من يخاف، كان داي ياما . أو، الشاب الذي خطا قبلي في المعبد، قد أجاب على الفور. إذن وضعوا الحراس للناس كي يوقدوا الشموع ويطلبوا البركة. نعم اعتقد هذا ولو إنني لاأعرف الكثير من الطقوس. أجابني وهو ينظر الى الشمعة التي أوقدها.

مابين تمثال بوذا المتطامن مع العالم ومع نفسه، وصوره المتعددة التي تشترك بملامحها الانثوية الناعمة،يكمن عالم ملغز. أياديه الكثيرة تشير الى عطاءاته ومعارفه وتحيل الى المهن التي يحترفها.هو يبقى ساهما يصلي كي يتوغل بعيدا داخل غابة نفسه.لم يكن بوذا مجرد ناسك يعيش عزلته، بل هو يمجد العمل والحياة، ويتآخى مع الطبيعة كي يطوعها ويتذوق خفايا الجمال والصحة والراحة فيها.

عندما حل عصر الميجي (١٨٦٨ . ١٩١٢) خرجت اليابان من عزلة النظام الإقطاعي الى العالم، فانتقلت العاصمة من كيوتو الى طوكيو، وبدأ التفاعل مع الحضارة الغربية. ولكن هل إنتهى عهد الساموراي والقيم النبيلة؟.

اليابان بين دول الشرق أشدها فخرا وتمسكا بتقاليدها، ولكن ذلك الماضي لم يحل دون تبنيها أفضل تقاليد الحداثة الغربية، ومنجزاتها العلمية والتصنيعية على وجه التحديد.ولعل هزيمتها في الحرب العالمية الثانية ومنعها من النشاط العسكري،بما فيه انتاج القنبلة الذرية، قد خدم إقتصادها السلمي، فاتجه صراعها مع الغرب الى مزيد من التصميم على التفوق الحضاري.

رغم دعاة الإنغلاق والوطنية الصارمة، الذين كانوا يشكلون نسبة يحسب لها حساب في المجتمع وبين النخب الثقافية، فان تطلع اليابان الى المستقبل وتفاعلها مع الحداثة، جعلها تمضي بعيدا في شوط انفتاحها وتنافذها مع المنجز الغربي،فتفوق إقتصادها على إقتصادات بريطانيا وفرنسا والمانيا مجتمعة. كل تلك التطورات تطلبت نظاما مختلفا عن النظام الشرقي الأبوي الذي كان يشكل جزءا أساسيا من تقاليدها. والزائر الى اليابان اليوم يستطيع أن يدرك معنى المجتمع الجديد: الوفرة والثراء والعلم. فهذا المجتمع لايقع خارج الفرد او بحدود المنجز الشكلي، بل هو نظام حياة تراه في الملابس وطرق تنظيم المدينة الحديثة، وفي وجوه الناس الناشطة التي تفيض صحة ونظافة ونضارة،وهي تجري مسرعة الى أعمالها.

في المجتمع الأكاديمي، كانت مواضيع العالم الثالث تشغلهم، من الهند وكوريا حتى العراق ومصر وتركيا وايران.انهم متشوقون الى معرفة كل شيء. تقلقهم الحروب وعوائق التنمية وعثرات القوى الفاعلة في تلك المجتمعات. وفي مدينة الإمبراطورية القديمة حيث تسكن الارستقراطية العريقة، يكتسح اليسار الجامعات والمصانع والوسط الأكاديمي في مفارقة لافتة. اليسار غاضب من سياسات حكومته، ولكنه يشارك في اللعبة الديمقراطية. وفي مركز الحزب الشيوعي بطوكيو لا تلمح صورة للينين او ماو او ماركس او سكرتير حزبهم. هناك حيث الغرف الأنيقة والمبنى الذي لايختلف عن دائرة أخرى،تجد صورة أطفال من البصرة، وشعار يتحدث عن بشاعة الاحتلال الامريكي للعراق.ستجد كراريس تروي قصة الفقر في اليابان والفوارق الطبقية والإجتماعية. فقد الحزب الشيوعي الكثير من مقاعده البرلمانية التي فاز بها في زمن ازدهار الشيوعية في ستينيات وسبعينيات القرن المنصرم، ورغم تشابه خطابه مع الماضي،فقد بقي قادرا على جذب الشباب والنساء الى صفوفه.

عندما تتحدث عن الديمقراطية تلمح إبتسامة ساخرة على وجه محدثك الشاب.من قال ان حكومتنا ديمقراطية، لايكفي البرلمان كي توصف بهكذا تسمية. حسن، لابد من أن تتذكر ان صرامة الفرد الياباني لاتعادلها سوى إرتباكه أمام الاجنبي. يمتنع الناس عن التحدث بالانكليزية في الاسواق خشية إرتكاب الخطأ، فاليابانى خجول، ولكنه صارم مع نفسه: هكذا تقول مياو رفيقتنا التي درست في القاهرة الحركات النسائية العربية.

طوكيو تأوربت أو تأمركت حتى كادت تنسى نفسها، ولا يهم أن تجد أمام قباحة ناطحات السحاب بعض أبنية جميلة تذكرك بالمعمار الياباني وإن شمخت على قامات الناس القصيرة. نساء طوكيو يرتدين آخر صرعات الجمال، وعلى إمتداد الشوارع تجد الماركات والاسواق العالمية : الباريسية والسويسرية والايطالية، وكل ما يخطر في البال من عالم الثراء. يقال ان طوكيو أغلى عواصم العالم، ولايعادل كرم أهلها سوى تواضعهم وأدبهم الجم. ولأنها مدينة لايقصدها مهاجرو البلدان الفقيرة،فقد غلب عليها التغرين المحلي، وبقي الثراء والنظافة والأبهة طابعها المميز.البروفسورة ساكاي تقول ان للشباب مدينتهم الأخرى الموازية لطوكيو، وهي تتعمد أن تكون النقيض. هم أكثر حداثة وفوضى. شوارعهم تفتقد النظافة وليلهم ضجيج وتمرد. أما مشاكلهم الأكبر فهي الانتحار، فقد زاد عدد المنتحرين بين الشباب في المدة الأخيرة. قلت : يبدو ان الانتحار بين الشباب نزعة شرقية. قالت: تقصدين شبابكم المنتمي الى القاعدة. أظن أن إختلاف الأسباب هنا نسبي، فالشاب الياباني عندما يخطط لانتحاره، يظن انه ينتقم من المجتمع. مجتمعه الصغير في الأقل، ولكنه أيضا يؤمن بأنه سيذهب الى مكان ما في السماء، يتحدثون عن هذا المكان في الرسائل التي يتركون.الاختلاف يكمن في عدم قدرة الفتى هنا على إيذاء الاخرين كما يفعلون عندكم.

ولكن عقيدة الانتحار تراث الفارس النبيل الياباني. السوماراي يقتل نفسه كي يمحو العار عن عائلته،أو كي يخلف أثرا لاينسى. الفعل الذي يذهب بجميع مهانات العالم،كما يقول ميشيما أشهر أديب ياباني إنتحر على طريقة الساموراي، فخلف ضجيجا عالميا وترجمت كتبه وبيعت في كل انحاء العالم. وهي حجة تكمن خلفها مازوكية عالية كما نتخيل.يكتسب الإنتحار في اليابان صورا شتى منها الإيحاء الفني. ثلاثة أكبر أدباء اليابان الذين عرفوا في العالم قضوا منتحرين. في رسالة من ميشيما الى الروائي كاواباتا ياسوناري الحائز على جائزة نوبل في ١٩٦٨، أعلن ميشيما رغبته بالانتحار،ولكنه كان يخاف ان يلحق العار أسرته من جراء فعلته ((لا أستطيع تحمل سخريتهم من أطفالي بعد موتي)). نظرته هنا وهو الفرنسي الإقامة إختلفت. ولكن ياسوناري نفسه مات منتحرا بعد سنتين من إنتحار ميشيما.

ياسوناري صاحب رواية (الجميلات النائمات) و(بلد الثلج) الفائزة بنوبل، كان شيخا عندما انتحر، وبعد نجاحه وشيوع أعماله وترجمتها الى اللغات الاخرى، بدت خاتمة إنتحارة مجرد حكاية يابانية من تلك الحكايات التي تضع النقطة الأخيرة في سطر الكتاب الأنيق. منافس ياسوناري الروائي أو سامو دازاي (١٩٠٩. ١٩٤٨) الذي عشق أدبه الشباب وبينهم ميشيما، كان قد سبق الأثنين الى الانتحار.روايته (غروب الشمس) يعتبرها ميشيما ملحمة غنائية، او ملحمة تاريخية لم تكتمل. كانت روايات كاواباتا، تمثل الوجه الجميل لليابان الوديعة الهادئة الرومانسية،الخلابة السحرية.في حين تمثل روايات دازاي القلق والتوتر. الرعب، الغروب، والسقوط.مجتمع اليابان المفتت مابعد الحرب.إختلفت الدوافع إذن والمصير واحد.

صاحب رواية "القناع" ميشيما قدم نفسه كما هو الياباني. كان مؤمنا بالروح الوطنية، العسكراتارية اليابانية، منتقدا مجتمع الغنى والوفرة والاستمتاع بالحياة : ((الاستمتاع والحرية زائفان، وهذا ينعكس على الكتابة فقد أصبحت طعاما معلبا)) هذه النزعة المتشائمة يرفضها الأدباء الجدد، مثلما يرفضون التمسك بتقاليد الكتابة القديمة وبينها شعر الهايكو الذي إكتشف عبره عزرا باوند النزعة الصورية. معلم الهايكو " باشو" (من شعراء القرن السابع عشر) اشتهر في الغرب اثر هذا الاكتشاف. والهايكو بيت واحد مكون من سبعة عشر مقطعا صوتيا باليابانية، ويكتب عادة في ثلاثة أشطر.هو الشعر الخالص والنظيف كما يسميه باوند. وهو بسيط ولا يحتوي على التشبيه والاستعارة،فعلاقة الشاعر مع الطبيعة والاشياء علاقة مباشرة وحسية وتشترط حساسية خاصة. ولكنه التعبير الأنسب عن الأرواحية في عقيدة اليابان ماقبل البوذية التي إمتزجت فيها بعد أن وفدت الأخيرة من الهند.فالاشياء والطبيعة لها روح في القصيدة وهي تتواصل مع الشاعر وتشكل جزءا من وجدانه.

تبقى وأنت في اليابان تبحث عن الشيء الضائع، عن قصيدة الهايكو التي تقول:

((حاشية ثوبها مطرزة بالزهور/ الكاحل يغوص عميقا في النرجس/ وهي تجمعه)). تبقى تحاول معرفة لغز البشر والأشياء التي تلتقيها. هناك أسرار معلقة في الهواء يحرسها الكتمان والهدوء والكياسة الشرقية. ينحنون لبعضهم حتى تلامس الرؤوس الركب، ولكنهم يستبدلون مع الأجنبي هذه العادة بهزة رأس صغيرة.عروض طعامهم في الأسواق هي وحدها فن قائم بذاته.الصحون والعلب والسلال والمسطحات التي تحوي الوجبات او الحلوى، تنسق مثل آنية الزهور. كل زاوية لها لونها ولمستها التي تتناغم مع مايجاورها لتشكل هارموني يجذب النظر،وقبل ان يحرض الشهية يختبر الذوق الفني لصانعه .ستدرك سر عنايتهم بجمال الخزفيات وآنية الطعام، فطقس مائدتهم يضفي على فعالية مثل هذه نوعا من الهيبة والذوق الرفيع والحميمية.

تجلس على الأرض وتساهم في الطبخ بإناء خزفي يتوسط المائدة. وعلى مراحل تتذوق الطعام والشراب.تنبثق الضحكات وتشتد المناقشات في مسامرات الليل الشرقي،ويحضر جلال الدين الرومي والمعتزلة وحرب العراق، وتقاليد الجيشا والبوذية. يشرحون كل ماتريد، ويعقد من يعرف البلاد العربية مقارنة بين طعامهم وطعامنا أدبهم وأدبنا. تصوفهم وتصوفنا. تقول يوشيكو كوريتا التي درست في السودان ان الصوفية في الاسلام تشابه البوذية اليابانية، لهذا تستهوي الشباب الياباني.العرب تعرفوا على الحضارة الصينية في تراثهم المكتوب ولم يعرفوا اليابان إلاّ حديثا. كنت اقول لها، نعم انت على حق تجيبني، فالحضارة الصينية أعرق من حضارتنا. عقدة الصين تراها في متحف كيوتو.الكثير من مقتنياتهم صينية، وطريق الحرير هو أكبر من صناعة وتجارة، بل هو ثقافة تنقلت عبرها قوافل الحضارات. إقتصادنا يعاني مشكلات، واقتصاد الصين هو الذي سيغزو العالم في المستقبل. تقول سكاي دون خوف من بلد تربطه بالصين مشاكل عويصة.

الكتابة اليابانية الصورية مثل تقاليد الجيشا، لايمكن الاستغناء عن سحرها وجمالها وطقوسها، ولكنها غير عملية ولا تناسب العصر الحاضر. كنا نبحث أنا وزوجي عن بيوت الجيشا في العاصمة القديمة، فذهبنا مع المحاضر المصري في قسم الاسلاميات - جامعة كيوتو محمد نوح. صحبتنا ساكاي الى شارع الجيشا (الدرب المؤدي الى الورد). هي تقول اننا لن نجد بيوتا للجيشا اليوم، بعد ان تحولن الى فنانات يؤدين طقوس الرقص والعزف والغناء. دور الاستراحة التي تضيفهن هي الأغلى في اليابان ولا يقصدها سوى الأثرياء. بين الدروب تكتشف تلك الريازة الشرقية التي تذكرك بالمدن الإسلامية القديمة في المغرب وأندلسيا. أزقة ضيقة وطرز بناءٍ ساحرة. تعلق المصابيح على بواباتها وتسور بمختلف النقوش. تضع صاحبة الدار الملح على العتبة، ليطرد الشر والحسد.

فجأة لمحت إحدى فتيات الجيشا قادمة، كانت تركض بخطوات سريعة مجتازة الشارع بخفة طائر. لحقتها لأصورها وناديت عليها، فانعطفت في زقاق ضيق واختفت. صفنت وحدي في عرض الشارع وسمعت ضحكة زوجي من خلفي. مشهدها أثار حزني لافضولي، فهي تختفي خلف قناع من المكياج والملابس الفاخرة. هي مثل حيوان مذعور في الحياة الحديثة النابضة. تخاف الضوء والناس.أول رواية لكوباتا (بلد الثلج) تحكي عن قصة حب بين فنان وفتاة من الجيشا، فهي رمز الانوثة والحب المستحيل. الذي يريد الارتباط بفتاة الجيشا عليه دفع ثروة كبيرة كي يعتقها. هن مثل الجواري بعضهن يحاول الطيران خارج الأسر،فتتكسر أجنحته عندما يواجه الشمس. تلمح بعض حرج على وجه الياباني وهو يتحدث عن الجيشا. قلت لساكاي أعتقد أن مجتمع الحريم يشبه مجتمعات الجيشا مع فارق واحد ان كل الفتيات العربيات لرجل واحد. فابتسمت موافقة. أين هي المرأة اليابانية الآن، وهل هناك من يبيع إبنته؟. كنت اسألها. تقول انتهى عهد بيع البنات منذ زمن طويل. جيلنا الذي شب في السبعينيات هو جيل العمل، فتيات المكاتب والنضال من أجل الحقوق. أمهاتنا تفتحن على فكرة العلم والخروج من البيت، وكنا نحن أكثر طموحا. الفتيات الجديدات لايبدين اهتماما لا بالحركات النسوية ولا لطموحات المساواة. ورثن عن الأمهات بعض الحقوق، وما من مزيد. المرأة اليابانية بالطبع تحتل في كل الصناعات والوظائف مكانة، ولكنها لاتحتل في البرلمان حتى حصة مساوية لما تملكه المرأة العراقية. أثارت المقارنة دهشتي. وهل تحسبين مسرحية مشاركة النساء في البرلمان العراقي جادة؟. أعرف هذا. كانت تهز رأسها وتتجاوب مع ضحكي. مجرد إيتزاز نحتاجه حين نتكلم مع السياسيين.

في قسم الدراسات الاسلامية بجامعة كيوتو كان طلبة الدكتوراه يستمعون الى محاضرة عن الحركات السياسية الاسلامية،يلقيها فالح عبد الجبار،رئيس القسم كوسوكي الذي قدم المحاضر، لم يجلب جمهورا، بل اقتصر على طلبته كي تكون جلسة مفيدة تتفرع فيها الاسئلة من التصوف حتى المذاهب المتصارعة والحركات الانتحارية. الشاب الذي غيّر أسمه الى حسن وأعتنق المذهب الأشعري، يجادل في المذاهب، وهو يكتب موضوعا بالعربية عن إمكانية دخول غير المسلم الى الجنة. يقول إعتنقت هذا المذهب لهذا السبب، فهو يسمح بهذا الأمر!. الدارسون يتكلمون العربية، ولكنهم أكثر طلاقة بالانكليزية.طالب تركي يدرس التصوف اختفى من النقاش. ذهبت الى غرفة الأنترنيت كي أبعث مادة الى جريدة الرياض، فوجدته يصلي. فتاة إيرانية تضع القناع على وجهها وتسأل عن ولاية الفقيه. سؤالها استنكاري، فقد أمضت أكثر من عقد في اليابان وهي متزوجة من ياباني، وتتطلع الى ايران حديثة. أسألها ماقصة الأقنعة التي أراها في كل شارع على وجوه الناس. تقول: هؤلاء مثلي مصابون بالبرد، وكي لاتنتقل العدوى الى الاخرين يضعون قناعا.هذا هو سر من أسرار نجاح اليابان. كيف تؤدي واجبك إزاء المجتمع على أحسن وجه. تقاليد المجتمع الأبوي الصارم، تراث في الكد والجد يفخر الياباني بأنها مفتاح تطوره.

في تشيبا المدينة التي بدأ فيها مؤتمر "المجتمع والتنمية" رجعت الى غرفتنا في الفندق فوجدت الشغيلة على وشك أن تنتهي من تنظيف الغرفة. ترددت في منحها بخشيشا، فقد كان وجهها يشبه وجه سيدة أعمال، وهي أكثر أناقة مني. وعندما قلت للأصدقاء هذا، قالوا حسنا فعلت، فالياباني مهما كان عمله يستنكف من البخشيش. لابخشيش في المقهى او المطعم او المطار او الفنادق. ولا رشوة او محسوبية في الدوائر، فهذه المعايب ليست فقط عارا إجتماعيا، بل رفضها يدرج ضمن تقاليد النبل والترفع التي يشترك فيها الغني والفقير.

المعرض السنوي الثاني لجمعية التشكيليين العراقيين في ذي قار

الـــــرؤيـــــة مـــن خـلال مـــــادة الـــتـعـــبـيـــر

خالد خضير الصالحي

أن واحدة من أحرج اللحظات في مشاهدة المعارض التشكيلية عندي.حين أواجه صفحة دفتر الزائرين بيضاء (لا تقبل الشطب ولا الحك)، وهو ما حدث لي حينما واجهتها في هذا المعرض فلم أجد وقتها الا فكرة بدت لي (أستثنائية) وهي: هل يمكن أختراع وحدة قياس معيارية للرقي في مدينة ما؟ وقد أحسست أن وحدة القياس هذه التي اقترحها هؤلاء هي العمل الفني، وكنت أقصد العمل الفني بمعناه الواسع الذي تكون المعارض الفنية جزءا فيه، فأكدت في الصفحة التي دونتها أن هؤلاء التشكيليين قد أسسوا وحدة (مقياس رسم) راق دفين تحت طيات مدينة تنهض من ركام الحزن والفاقة والمعاناة والتأريخ المديد.

كان أول هؤلاء حسين نعمة، ذلك المطرب الذي أسس سفرا في تأريخ الاغنية العراقية، والذي بدأ يكتب الشعر، والذي بدأ يرسم، فكانت لوحاته تنطويان على احتفاء باللون والحركه رغم ان مبدعهما لم يكن رساما محترفا . لقد اتخذت لوحاته مفتتحا للمعرض فكأنما شكلتا بوابته أيضا. وفرضتا عليه الثيمة التي سأتلقى المعرض من خلالها، وكانت ثيمة المعالجة التقنية للمادة المستخدمة. وكانت جزءا من بحثي فيما أسماه شاكر حسن ال سعيد (شيئية اللوحة) ذلك المفهوم الذي ينطوي على الوجود المادي للوحة:

كل مادة، وكل أجراء تقني يطرحه الفنان من خلال لوحاته باعتبارها (سطحا) تسكنه المادة (=اللون والتقنيات) فكأني قد تسلمت منذ البداية مفتاح الثيمة التي ستهيمن على تجربتي في تلقي الأعمال الأخرى.

كانت هيمنة المشخص بادية عند حسون الشنون ففي أجوائه التجريدية الخالصة وضع علامة تذكر المتلقي أن مشخصات الواقع مازالت موجودة، بينما أهتم حسين شامر بملمسية سطح اللوحة (texture) الذي أسبغ عليها نمطا من الكونكريتية أضافة لاستخدام مواد ظاهرة كالخيوط السميكة التي تفعل فعل المستحثات لخيال المتلقي حينما تقترح على خياله الانسياق وراءها، وتتبع الأشكال التي تقترحها تلك الخيوط التي تبدو هياكل تتلوى و تتخفى خلف ضباب اللون. وكانت المعالجة التقنية التي أستخدمها كاظم جبار قد هيمنت عليها قوانين الصدفة ليكون الفعل القصدي للرسام متركزا في حرية الأختيار، وهو أمرا شائع عند فناني الرسم الحدثي = رسم الفعل(Action Painting).

وهم الذين يتتبعون أثر جاكسون بولوك، فكان ذلك الثراء اللوني، والمعالجة الجريئة للمادة، قد ظهرت في أعمال حيدر فاخر، وأحمد عبد عصواد حيث بدت الأمكانية التقنية للمعالجة اللونية وكأنها (بقايا) تكنيك أكاديمي لوني واضح، بينما كان تكنيك محمد سوادي ذا طابع اخر وخاصة في استخدامه لطخة اللون الاحمر التي تتوسط اللوحة لتشكل طغراء خاصة بالرسام يوقع بها اعماله.

كان اسعد الشطري يذكّرمتلقيه بالواقع من خلال بعض عناصره الخطية من المثلثات والزخارف التي يبثها في اماكن مختارة من سطح اللوحة ومن خلال معالجة لونية متقدمة، وكان هم علي عجيل تفجير فعل شيئية اللوحة وملمسها ولكن من خلال هارموني لوني يلف اجواء اللوحة بهدوء، وكانت المعالجات التقنية لحسين الشنون ثرية مع الاحجام الكبيرة للوحة، ومع احكام السيطرة على اللون الذي اتصف بطابع تقليلي مقتصد، على العكس من شاكر الجابري الذي ياتي عمله جزءا من تيار بدأ يفرض وجوده في الرسم العراقي الان من خلال منجز عدد من الرسامين المتقاربين اسلوبيا (عاصم عبد الامير وفاخر محمد وضياء الخزاعي) حيث تكتظ اللوحة بالعلامات اللونية، الا ان الرسام الجابري يدس من بين ثنايا الوانه التجريدية بعلامة مشخصة فيظهر راس حصان في كلتا لوحتيه ربما رغبة منه في التاكيد على انه ما زال ضمن اطار الواقع ومشخّصاته، تماما مثل حسون الشنون. كان عادل داود يعالج سطوح لوحاته بروح حداثية كان همها معالجة الشكل، واللون، بجرأة تشتمل حتى على معمارية شكل اللوحة، وقد تمنيت ان ارى معرضا شخصيا لهذا الرسام الذي بدا استثنائيا في خرقه لنسق الرسم الذي تموضعت عليها اجيال من رساميناً باعتبارها قواعد راسخة في معمارية اللوحة.

لقد اوحى لنا موسى عبد من خلال هيمنة المشخص والموضوع ان الانسجام اللوني للالوان المنطفئة ليس الا تعبيرا عن انطفاء الحياة ذاتها في واقع مرير.

كانت هنالك معالجات (استثنائية)، بمعنى السير بخطوات مختلفة عن النسق العام لهذا المعرض وذلك حينما غلبت روح المنمنمة مثلا على المعالجة الخطية النهائية التي اجراها الرسام انور كاظم لتحديد اشكال مشخصاته التي نشرها فوق سطح اللوحة بعد تمامها، فيما اعادنا كريم داود الى احد مقترحات (التعبير عن الروح المحلية) الذي شكل الاشكالية الحضارية لفن الرسم العراقي مطلع الخمسينيات، من خلال الموتيفات الفولكلورية، بينما اعادنا كاظم الركابي لحقبة سوريالية غابرة، وحاول طلال عبد تقديم مناظر طبيعية مرسومة بروح اللون المجرد وشيئية اللوحة كما كان يفعل مونيه في اللمفيات في اواخر ايامه حينما صارت المعالجة اللونية هي همه الاساس، فبدت مناظره الطبيعية لوحات تجريدية يهيمن عليها اللون على عناصرها، وهو ما بدا عند عبد الحسن عبد الرزاق من خلال اجواته الضبابية الحلمية.

لقد طغت، في اعمال النحت، السمات النصبية في اعمال سامر عبد الرضا كشيش وهادي صاحب وعلاء الخشان الذي قدم مشروع نصب متطاول تجريدي خال من الزوائد، بينما استثمر خضير جابر شكل اغصان الشجرة ليوجه خيال المتلقي نحو اجراء تشاكل صوري مع اجزاء من الشكل البشري او ربما مع اي كائن خرافي يشطح ذلك الخيال نحوه.

لـــوحـــة لـ (محـمـد ســوادي)

لـــوحـــة لـ (لـهـيـب كـــامـل)